الانتماء الوطني
"رؤية أنثروبولوجية حول ضياع الهوية الوطنية العراقية"

الباحث محمد باقر ناصر كاظم **أ.م.د. حسين فاضل سلمان**
جامعة بغداد/كلية الآداب/قسم علم الاجتماع **جامعة بغداد/كلية الآداب/قسم علم الاجتماع**
mohammedbrnaser@gmail.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

إن الهويات الفرعية بإمكانها تقويض عمليات الاتصال والتواصل بين أفراد الثقافة الواحدة، إذا ما لم تكن هناك معالجات وخطط استراتيجية ذو أمد قصير وبعيد، إذ تعد عملية الاتصال بمثابة الرافد الوحيد لقيام ولاء وانتماء واحد ألا وهو الولاء للوطن.

وتخشى بعض الدول من تفاقم الهويات الفرعية على حساب الهوية الوطنية، إذ تعاني مجتمعات أوروبا بعد ظهور داعش كمحتل في الشرق الأوسط، ليتم ربط كل ذلك مع العراق بشكل أكثر تحديداً، مستذكرين حقباً سابقة، كانت لها الأثر في نشأة الفجوات الثقافية داخل المجتمع العراقي، فيما لم يتم إهمال الوضع الحالي الذي تردى فيه أداء القطاع الحكومي بشكل كبير، إلى حد وصل فيه الإنسان العراقي فاقداً للثقة بمرؤوسيه، ما أحدث خللاً في عملية الاتصال والتواصل.

الكلمات المفتاحية:

١- الانتماء
٢- الوطن
٣- الهوية الفرعية

المقدمة

تمثل كثرة الانتماءات والولاءات بالآونة الأخيرة في المجتمع العراقي، وحتى في المجتمعات الأكثر تطوراً وتقدماً، كما في البلدان الغربية مشكلة يصعب حلها على المدى القريب، إذ تتطلب حلولاً استراتيجية ودراسات وبحوث تعمل على وضع المعالجات الآنية والمستقبلية.

ويفترض كثيرون أنهم متضررون من انتشار الولاءات الضيقة على حساب الولاء الأم، ألا وهو الولاء للوطن، إذ يركز بحثنا الحالي على طرح العديد من الرؤى والأفكار والآراء التي تخص كثرة الولاءات، ومناقشتها وفق الموضوعية ووفق

السياق العلمي، ومعرفة هل أن الولاءات الفئوية والحزبية بإمكانها تقويض الولاء للوطن؟ أم أن الولاءات بكثرتها لا تؤثر بشكل أو بآخر على الولاء الوطني؟ وكيف تنتج الولاءات الضيقة؟ في الحقيقة هناك أسئلة كثيرة بحاجة لأجوبة، وسنحاول قدر الإمكان الإجابة عن الكثير منها.

وإننا في صدد تقديم بحث مصغر وفي فترة قصيرة، لذا فليس بالإمكان إنجاز بحث مطول في هذه الفترة، وهذا ما يحتاجه موضوع وعنوان عريض كهذا، قد يدخل في مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية وغيرها، إلا أننا سنحاول جاهدين تغطية هذا الموضوع بمختلف مجالاته، وعوامل شرعنته على حساب الانتماء الأكبر وهو الانتماء الوطني.

الهوية والولاء:

جاء تعريف الهوية بصيغته اللغوية في المعجم الوسيط على أنه حقيقة الانسان المطلقة، وجاء أيضاً بعنوان البئر البعيدية القعر (ضيف، ٢٠١٤، صفحة ١٠٠٢).

أما بالمعنى الاصطلاحي فتنطوي فكرة الهوية على معان متعددة: إنها تسمي وتبرز (تُظهر)، وهي تقوم أو تميز، وهي وإن كانت تستخدم في لغة التخاطب العادية فإنها تنتمي كذلك إلى مصطلحات علم النفس والتحليل النفساني والفلسفة، وبدرجة أقل إلى مصطلحات علم الاجتماع (فيريول، ٢٠١١، الصفحات ١٠٠-١٠١).

ويؤكد الكاتب (حسن حنفي) في كتابه (الهوية) أن الهوية خاصة بالإنسان والمجتمع (الفرد والجماعة)، هي موضوع إنساني خالص فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، بين الواقع والمثال وبين الحاضر والمستقبل. فالهوية في رأيه تعبير عن الحرية (الحرية الذاتية) (حنفي، ٢٠١٢، صفحة ١١).

والهوية في الحقيقة مفهوم يعبر عن انتماء الإنسان لدين أو لطبقة أو لقومية، فما ينبغي لنا مناقشته في السطور اللاحقة هو مدى تأثير الإسلام وهوية المسلم على الهوية الوطنية، سواء في العراق أو في بلدان أوروبا التي شهدت هجرة جماعية من البلدان العربية والإسلامية. إعتبر الدكتور علي الوردي أن الاسلام هو نظام سياسي ديني واجتماعي، ويشكل منظومة متكاملة ولها طرح عقائدي وثورة ملهمة أيضاً (الوردي، ٢٠١٣، صفحة ٩٥). رغم انقسام الاسلام والمسلمين إلى مذهبين (السنة والشيعة) إلا أن هويتهم الجامعة والموحدة هي الاسلام غالباً،

وخاصة في عيون الآخرين، ففي هذه السطور سنحاول التوصل إلى حقيقة الهوية المسلمة أو هوية المسلم، إذ إن العديد من الأسئلة تدور في أذهان المفكرين وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، أبرزها ما جاء به الكاتب والباحث الأنثروبولوجي (غابرييل مارانسي) في كتابه (أنثروبولوجيا الإسلام)، وهذه الأسئلة هي ذاتها التي يواجهها المسلمون في بلدانهم أو في البلدان الغربية، وهي (هل أنت فرنسي أم مسلم؟)، (هل أنت بريطاني أم مسلم؟)، (هل أنت أمريكي، نمساوي، سوري، مصري، عراقي، أم مسلم؟) (مارانسي، ٢٠١٦، صفحة ١٨٢).

وتعاني الأنظمة الأوروبية في الوقت الحالي من مسألة تفاقم الهويات الفرعية على حساب الهوية الوطنية الجامعة، فما يعمل عليه الأوروبيون من سياسة دمج المهاجرين يبدوا أنه فشل، إلا إذا قرروا الاعتراف بالهويات الفرعية ورغبتهم في إبقاء ولاءاتهم متعددة، يتزامن ذلك تنامي أحزاب سياسية مناهضة للمهاجرين.

ولو قاربنا هذه المسألة على الواقع العراقي، ففي اعتقادي أن النتائج ستختلف ضمنياً، إلا أنها ستتفق شكلياً، فإنك لو سألت عراقياً عن تفضيله للوطن أم للدين سيجيبك بكل بساطة مفضلاً الدين بالتأكيد، وقد تخف حدة الابتعاد صوب الدين قليلاً عند طرح هذا السؤال التفاضلي بينه وبين العشيرة.

ويمثل الدين بالنسبة للكثير من العراقيين تابو* لا يمكن المساس به، يضعونه في خانة التقديس، إذ لا يعلوا عليه شيء. لسنا هنا في صدد مناقشة موضوعة الدين ولا انتقاد مضامينه أو التوافق معها بقدر ما تصبو إليه قراءتنا للولاءات الأخرى التي لا تضع الوطن كوحدة ولائية يكتفي بها الانسان، والحقيقة أن الولاء بالتالي خيار، ورأي، يتكون لدى الانسان الذي له الحرية في اتخاذه، إلا أننا لو قرأنا المجتمع العراقي من زاوية التعدديات الثقافية سنصطدم بكثرتها، ووفق هذه الكثرة نحتاج لهوية واحدة وانتماء وولاء واحد لا غيره، ألا وهو الوطن.

أثر الولاءات والانتماءات على الاتصال والتواصل الاجتماعي :

يعد الانتماء رابطاً روحياً مثيراً، يربط الانسان بالوطن، أو قد يحول بينه وبين وطنه، فعلى سبيل المثال انتماء الانسان إلى عشيرة أو إلى قبيلة، وشعوره بأن الوطن يأتي في المرتبة اللاحقة من حيث الولاء والانتماء فهذا يحدث بالتأكيد هوة بين الإنسان ووطنه. وسنتبنى في الأسطر اللاحقة تحليلاً للمشهد العراقي الحالي، وهذا ما رسمنا على أساسه بحثنا المصغر هذا.

* التابو:- كلمة بولينيزية تطلق على المحضور في المجتمع.

وبدأ المجتمع العراقي رحلته مع العنف بعد العام ١٩٨٠ مع وصول صدام حسين إلى سدة الحكم مترأساً حزب البعث آنذاك، وبدء الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ٨ سنوات، وتبعها بعد ذلك الدخول إلى الكويت الذي ترتب عليه حصاراً اقتصادياً خانقاً قوض كل قطاعات وأنساق المجتمع العراقي، وفك هذا الحصار جاء بعد احتلال العراق في العام ٢٠٠٣.

وحقبة بعد العام ٢٠٠٣ جاءت بعد تراجع خطير تعرضت له المواطنه في عقد التسعينات، بعد فقدان الإنسان العراقي أبسط حقوقه، ما أدى به إلى تخيل توأمة بعثية وطنية، أي أنه ربط الأرض والمكان والدولة بالنظام، وترتب على إثر ذلك انعدام الشعور والوطني، الذي امتد صداه لغاية الآن. إضطر النظام السابق على إثر هذه المعطيات أن يستعين بشيوخ العشائر في ضبط أفراد المجتمع، الذين كانوا يهربون من الجيش، ويقومون بأعمال تخريبية، ويخرجون عن القانون، لفقدانهم الانتماء لهذا الوطن الذي كان وطن البعثيين وفق مخيلة الكثير من العراقيين. قوي المركز الاجتماعي للعشيرة في بغداد وبقية محافظات الوسط والجنوب، بعدما سيطر النظام السابق بشكل صارم على أغلب مفاصل المجتمع، إلا أنه لم يستطع السيطرة على شمال العراق الذي يقطنه كثير من أبناء القومية الكردية، فاضطره ذلك لاستخدام العنف المحرم أممياً وهو (السلاح الكيمياوي)، ما خلف مجزرة كبيرة.

أما بعد العام ٢٠٠٣ تدهور الوضع الأمني بشكل فضيع، والتجأ أبناء الوطن الواحد كل إلى عشيرته، وطائفته، وقوميته، ليحتموا بها من مختلف الأخطار التي أحدقت بهم، وفي ظل استمرار ضعف القانون والأجهزة الأمنية قل الاتصال والتواصل بين أبناء الوطن الواحد.

أحدثت حالات التهجير القسري التي مني بها العراق أثناء الحرب الأهلية (٢٠٠٥-٢٠٠٧) خلاً في جانب اتصال العراقيين مع بعضهم في ثقافة واحدة، وتفاقم الجوء إلى الهويات الفرعية، كل شكل و رسم دائرته المناطقية الخاصة، ففي بغداد ورغم غياب المظاهر المسلحة في الوقت الحالي، وعودة الأمن بصورة نسبية إلا أننا لا نزال نشهد حضوراً للانقسامات المناطقية على أساس الدين والمذهب، وهذا بدوره ينسحب على مختلف أجزاء العراق.

شهدنا في الآونة الأخيرة قيام حكومة إقليم كردستان باستفتاء يسأل المواطنين حول رغبتهم بالانفصال عن العراق من عدمها، والذي جاءت نتيجته مكللة بالقبول الشعبي الكردي، وهذا يحيلنا إلى تراكمات عدم الثقة في النظام الذي عكسه العراقيون على الوطن. تتشكل الهويات وفق رؤية (كلاسترز) الذي درس مجتمعات

الهنود الحمر بعد عملية انغلاق تمنع المخالطة مع الآخرين نتيجة مخاطر تتعرض لها من الخارج، متمثلة بالغزو، لتنتج هويات وثقافات مغايرة (شرودر، ٢٠١٢، صفحة ٥٥)، وما نشهده حالياً يسهم في دعم رؤية كلاسترز ولو جزئياً. من المفترض أن يكون الوطن هو السبيل الوحيد الذي بموجبه نصف مفهوم (الانتماء)، والانتماء بوصفه دائرة هو : مجموعة من البشر يشملهم وضع اجتماعي لوصف يتصفون به بالتشابه فيما بينهم، ويكون هذا الوصف ذا فاعلية اجتماعية، أي يشكل لمن يتصف به مركزاً اجتماعياً يتعامل به ويؤثر في حقوقه وواجباته الفردية أو الجماعية، مما يوجد صالحاً مشتركاً بين من يشملهم، وينتج وعياً ثقافياً، والانتساب إليه يحرك بواعث الدفاع عن وجوده (ماجد، ٢٠١٣، صفحة ٢١). يمكن للانتماء أن يكون انتماء لمنطقة، أو لعشيرة، أو لحزب، أو لفئة اجتماعية، أو لقومية، أو لوطن، والتحدي الكبير الذي تواجهه أغلب البلدان وخاصة العراق يتمثل في كيفية إذابة كافة الانتماءات في انتماء واحد ألا وهو الوطن.

ينبغي علينا التفريق بين مفهومي الولاء والانتماء، فالولاء لغة هو من الولي أي القرب والدنو، ويقال: بينهما ولاء أي قرابة، والولي ضد العدو وهو المحب والصديق والنصير، ووالى فلان فلاناً إذا أحبه، والولاء ضد الملك والوَلاية، والوِلاية هي النصرة. وعليه فالولاء لغة يعني النصرة والمحبة.

يشعر الفرد دائما أنه بحاجة إلي الارتباط مع مجموعةيلتمس منها الحماية والمساعدة، وهذه الحاجة تنمو مع الطفل من شهوره الأولي. فالطفل كعضو في أسرة يبدأ بالشعور بأنه ينتمي إليها، وبعد ذلك قد تتاح لديه فرصة التعرف والاحتكاك بأطفال آخرين في المجتمع، ينتمي إليها الذي يعيش فيه أو في مدرسته، فتتوسع دائرة انتمائه، وتزداد حاجته للانتماء إليهم، وبمرور السنين يدرك الطفل أن الانتماء هو من الأشياء التي تلقى تقديرا، ويتوقع أن يكون جزءاً من المجموعات التي يشترك فيها. لذا فمن المفترض أن يسهم كل من الانتماء والولاء في تعزيز الجانب الوطني وتقويته لدى الأفراد، لا أن يقوم بتشتيتهم على حساب الوطن.

والاتصال هو المسؤول الأول والأخير عن عملية يمكننا تسميتها بالتلاقح الفكري، لبناء منضومة ذهنية موحدة للمجتمع والثقافة، وبالتالي فإن خللاً حدث ويحدق في منظومة الاتصال أدى إلى غياب اللحمة الوطنية في العراق، وهذا الخلل جاء بعد مخاضات قاساها المجتمع خلال حقب متتالية ذكرناها في أسطر سابقة من هذا البحث.

وظهر في الآونة الأخيرة نوع جديد من الاتصال في العراق، متمثلاً في مواقع التواصل الاجتماعي، حيث يستخدم أغلب العراقيين بشتى صنوفهم هذه المواقع للتواصل عبر شبكة عنكبوتية تربطهم مع العالم المحيط والعالم البعيد، ويشتهر موقع الفيسبوك بين الأوساط الشعبية حالياً. فيما نشهد غياباً لخطط حكومية تسهم ولو بالشيء البسيط في إرجاع العراقيين إلى لحمتهم الوطنية التي فقدوها منذ سنين.

بعيداً عن الطرح المثالي فإن الاتصال يتم بعد أن تتم العدالة الاجتماعية، ويأخذ كل صاحب حق حقه بالكامل ومن دون تمييز، إذ تعتبر مسألة الحقوق من مهام الدولة بالكامل. إن عامل الرخاء الاقتصادي يشكل عصباً هاماً في عملية تذويب الولاءات، وبناء أساس جديد يقوم بتعزيز الاتصال في ثقافة واحدة.

النتائج:

١- يعاني العراق من تفاقم الهويات الفرعية على حساب الهوية الوطنية.

٢- إحلال العشيرة محل أجهزة الأمن الحكومية في توفير الأمن الشخصي.

٣- يعتري الاتصال خللاً جسيماً داخل النسيج الاجتماعي في العراق.

٤- تشير الدلائل إلى تكتلات على أساس الدين، والمذهب، والقومية، وهو السبب الرئيس لظهور خلل في عمليات الاتصال والتواصل بين أبناء الوطن الواحد.

٥- غياب العدالة الاجتماعية قوض كثيراً من الوازع الوطني، وأنشأ انتماءات على أساس الحزب، والعشيرة، والمذهب.

التوصيات :

١- وضع خطط حكومية قصيرة الأمد، وطويلة الأمد لمعالجة الخلل الذي أصاب منظومة الاتصال والتواصل الاجتماعية في العراق.

٢- العمل على زيادة الدخل الشهري للفرد العراقي.

٣- تحقيق العدالة الاجتماعية.

٤- زيادة ثقة المواطن بالدولة عن طريق تقديم الخدمات التي تحقق العيش الكريم، كتوفير الكهرباء، والماء الصالح للشرب، وخدمات تتعلق بالجانب الكمالي للمدن، والتي تنشر ثقافة حب الوطن والأرض.

المصادر والمراجع :

١- بتينا أي. شميدت و انغو دبليو شرودر ، أنثروبولوجيا العنف والصراع، ترجمة هناء خليف غني، بيت الحكمة، ط١، بغداد، ٢٠١٢.

٢- حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠١٢.

٣- شوقي ضيف، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط ٤، ٢٠١٤.

٤- علي الوردي، دراسة في سوسيولوجيا الإسلام، الوراق للنشر المحدود، ط١، ٢٠١٣.

٥- غابرييل مارانسي، أنثروبولوجيا الإسلام، ترجمة هناء خليف غني، دار ومكتبة عدنان، ط١، بغداد، ٢٠١٦.

٦- نادية مصطفى و ماجدة ابراهيم و أسامة ماجد، دوائر الانتماء وتأصيل الهوية، دار البشير للثقافة والعلوم، ط١، القاهرة، ٢٠١٣.

References:

1- Bettina Schmidt and Ingo W. Schroeder, Anthropology of violence and conflict, translated by Hanaa Khalif Ghani, Bait Al hikmah, Vol1, Baghdad, 2012.

2- Hassan Hanafi, Identity, Al maglis Al Aala of culture, Vol1, Cairo, 2012.

3- Shawky Deif, Al wasit dictionary, Arabic Language Academy, Vol4, 2014.

4- Ali Al Wardi, Sociology of Islam, Al-Warraq Limited publishing, Vol1, 2013.

5- Gabriel Marance, Anthropology of Islam, translated by Hanna Khalif Ghani, Adnan Library, Vol1, Baghdad,2016.

6- Nadia Mustafa, Majed Ibrahim and Osama Majed, Affiliation and rooting identity circles, Al-Bashir for Culture and Science, Vol1, Cairo, 2013.

National affiliation
"An Anthropological vision about the loss of national identity

Abstract:

The sub-identities could undermine the connection between people, that happens if there is no short and long term strategic plans, so the connection is the best way to create loyalty to the country.

Some countries fear the substance of sub-identities, Europe communities suffered of appearance of daesh, so we tied that to Iraqi situation with mentioning the history.